

التفكير والبيان يزيد الإيمان

خطبة للشيخ العلامة المجاهد:

محمد بن عبد الله المحجوري

حفظه الله تعالى

بتاريخ:

١٨ ربيع الأول ١٤٣٣

بدار الحديث السلفية بدماج

فرغها:

أبو أحمد ضياء التبسي

عفا الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سُورَةُ الْغَنَةِ : ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ : ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سُورَةُ الْأَحْزَابِ : ٧٠] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [سُورَةُ الْأَحْزَابِ : ٧٠ - ٧١]، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار،

أيها الناس! يقول الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : ٢٢] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [سُورَةُ الْفَتْحِ : ٤٣ - ٤٤] في هذه الآية أمر من الله ﷻ لنبيه إذ أنه أنزل إليه الذكر الشامل للقرآن والسنة فكلاهما ذكر؛ قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْخُرُوجِ : ٤٤] وقال: ﴿فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [سُورَةُ الْفَتْحِ : ٤٣]، سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : ٧] والذكر: المقصود في الآية أهل القرآن والسنة، فأبان في هذه الآية أنه أنزل إليه الذكر ليبين للناس وهذا دليل على أن الذي يبين للناس ما أنزل الله ﷻ إليهم هو من آتاه الله ﷻ الذكر؛ فبيّن الذكر أهل الذكر ويسأل عن الذكر أهل الذكر، وأهله هم الذين هم حملته والعاملون به كما قال النبي ﷺ: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»^(١) وقال: «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»^(٢)، ويقول الله ﷻ في آية تُرادف هذه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَعِبْنَا إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَى قُلْ هَلْ

(١) أخرجه أحمد: (١٢٢٧٩) وابن ماجه: (٢١٥) وصححه الإمام الألباني.

(٢) أخرجه مسلم: (٨٠٥) عن النّوّاس بن سمعان ؓ بلفظ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله...» الحديث.

يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿سُورَةُ الْأَنْعَامِ﴾ : ٥٠] فأبان ﷺ أن الذي يُمَيِّز بين ما ينبغي التمييز فيه ويُفَرِّق بين ما ينبغي التفريق فيه هم من وصفهم الله ﷻ بالتفكير ففي هذه الآيات بعد أن أبان الله لنبيه ما ذكره في الآية المذكورة حثاً على التفكير وبعد أن أبان الله ﷻ للأمة ما تقدّم في هذه الآية من أنه يُفَرِّق بين الحقّ والباطل ويُمَيِّز بين ما ينبغي تمييزه الموصوفون في هذه الآية حثاً على التفكير.

اعلموا عباد الله أن الله ﷻ أمر بالتفكير وحثّ أنبياءه على إبلاغ دينه ليتفكر العباد، أمر بالتفكير في أمور عديدة سواء بمعنى تدبر القرآن أو بمعنى التفهّم لدين الله أو بمعنى التأمل في مخلوقات الله ﷻ مما يُشرع التأمل فيه^(١) ورُتّب على ذلك خشية الله فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ ﴿سُورَةُ الْأَعْرَافِ﴾ : ١٩٠] أي: أصحاب العقول السليمة الفهّمة ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿سُورَةُ الْأَعْرَافِ﴾ : ١٩١] يتفكّرون في خلقها وما فيها من أشجارٍ وأحجارٍ وثمارٍ وأنهارٍ وبحارٍ وفي ما في السماوات ممّا خلقه الله ﷻ من أملاك وأفلاك وكون في الكون كلّهُ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ ﴿سُورَةُ الْأَعْرَافِ﴾ : ١٩١] الله ﷻ خلق هذا الكون بحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ ﴿سُورَةُ جُودٍ﴾ : ٢٧] ولا خلق هذا الكون بما فيه لعباً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٢٨﴾﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿سُورَةُ الدُّخَانِ﴾ : ٣٨ - ٣٩] ففي هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ ﴿سُورَةُ الْأَعْرَافِ﴾ : ١٩١] هذا يُثبِت لهم إيماناً قوياً في القلوب أن هذا ليس باطلاً بل هو حق وأنّه خلقه كلّهُ لطاعته وامتنال أمره: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ ﴿سُورَةُ فَصْلَتٍ﴾ : ١١]، ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾﴾ ﴿سُورَةُ الْأَعْرَافِ﴾ : ١٩١] إلى آخر الآيات، عند هذه الآيات العظيمة يذكر المفسّرون ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النّبيّ ﷺ قام ذات ليلة فقال: «يا عائشة ذريني أتعبّد لرّبي» قالت: يا رسول الله: والله إنني لأحبُّ قُربك وأحبُّ ما يسرُّك، فقام رسول الله ﷺ فتطهّر ثم قرأ هذه الآيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخرها وبكى حتّى بلّ لحيته ثمّ بكى حتّى بلّ حجره ثمّ بكى حتّى بلّ الأرض قال النّبيُّ ﷺ - حين آذنه بلال [وقال

(١) خرج بهذا القيد ما يفعله الصّوفيّة من التّظر المحرّم في النسوان والمردان بحجّة التفكير في مخلوقات الله!.

له:]- يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً لقد أنزلت عليّ آياتٍ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١) والشاهد من ذلك أن هذا يُفيد خشوعاً حيث لو أنزل هذا القرآن وغيره من الآي على جبالٍ لخشعت وتصدعت وهذا من دواعي التفكر في أن الإنسان يتلو القرآن مُعظماً له عاملاً به مُتدبراً مُتفكراً؛ ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَشْرِ: ٢١] فالله ضرب هذه الأمثال وأبان أن القرآن لو نزل على جبلٍ لخشع كل ذلك من أجل أنك أيها العبد تتفكر في هذا الكتاب وتتدبر فيه ثم تخشع لله ﷻ.

أيها الناس! أمر التفكر أمرٌ مهمٌ جداً، أمرٌ مهمٌ جداً وهو أن الإنسان الغافل هو الذي لا يتفكر في ما يقدم عليه وفي ما هو شأنه في الدنيا وفي حاله وعمله وأصلح هو أم غير صالح؛ أهذا بطال أم غير بطال؛ أهذا ظلم أم غشم أم غير ظلم فيجب على المسلم أن يتفكر ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ حِجَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٨٤] فوبّخهم الله ﷻ على أنهم بسبب غفلتهم وعدم تفكيرهم اتهموا

^(١) قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآيات: (قال ابن مردويه: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن علي الحراني، حدثنا شجاع بن أشرس، حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي أبو مكرم، عن الكلبي - هو أبو جناب الكلبي - عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر:

زر غبا تردد حبا

فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي ﷻ قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكي حتى بل لحيته، ثم سجد فبكي حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكي، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيِنٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٩٠] ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

وقد رواه عبد بن حميد، عن جعفر بن عون، عن أبي جناب الكلبي عن عطاء، بأطول من هذا وأتم سياقاً. وهكذا رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، عن عمران بن موسى، عن عثمان بن أبي شيبة، عن يحيى بن زكريا، عن إبراهيم بن سويد النخعي، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء قال: دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على عائشة فذكر نحوه. وهكذا رواه عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب "التفكير والاعتبار" عن شجاع بن أشرس، به. - اهـ - من تفسير ابن كثير (١٨٩/٢) وفي صحيح ابن حبان: «أفلا أكون عبداً شكوراً لقد نزلت عليّ الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها» الآية. وقال محقق صحيح ابن حبان: (إسناده صحيح على شرط مسلم) - اهـ - وهو كما قال إلا أن عمران بن موسى - شيخ ابن حبان - ليس من رجال مسلم وهو ثقة كما قال الذهبي والحاكم وغيرهما.

رسول الله ﷺ بالجنون وهكذا منهم من رماه بالسحر أو غير ذلك من الأكاذيب والافتراءات على نبي الله عليه الصلاة والسلام كل ذلك لأنهم ما تفكروا وما نظروا إلى ما عنده من خوارق العادات وما نظروا إلى ما عنده مما كرمه الله ﷻ به من نزول الآي - نزول الكتاب العظيم - وما نظروا مما أكرمه الله ﷻ به من النصر وأن هذا كله لو تفكروا فيه لعلموا أن هذا إنما هو بوحى من الله ﷻ ومدد منه وعون منه ولكن لما لم يتفكروا في ذلك وقعوا في الغفلة السحيقة حتى أذى بهم ذلك إلى قسوة القلوب وإلى معادة أولياء الله من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ومن يليهم فسبب ذلك هو عدم التفكير وأن يبقى الإنسان غافلاً وأن يبقى الإنسان غير متنبه لما يرى من الحقائق والبيان والأدلة فهذا يؤدي به إلى الغفلة وعدم التفكير في الأمور المهمة،

إن أمر التفكير أمر عظيم؛ في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سبعة يُظهِم الله في ظله» ومن هؤلاء السبعة المذكورين في الحديث قال: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله»^(١) وما هذه الخشية إلا أنه يذكر الله في خلوته ويذكر ربه ويتفكر في ما دلت عليه الأدلة وما يقدم عليه سواء في هذه الدنيا ما حاله أو ما يقدم عليه في آخرته من الموت وما بعده فعدم التفكير في ما يقدم عليه الإنسان وعدم التفكير على الإطلاق ضلال يؤدي إلى القسوة كما وصف الله بني إسرائيل بسبب غفلتهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ : ٧٤] فوبخهم على غفلتهم وعلى قسوتهم وعلى أن ذلك التغافل منهم معصية عظيمة الله ليس بغافل عنها، تفكر عبد الله في شئونك كلها تفكر كيف يهدي الله عباده ثم يهدي من يهديه إلى أن يموت مهتدياً ويهدي آخرين ثم يزيغ قلوبهم ويضل آخرين ثم يهديهم وهكذا له الحكمة البالغة والحجة الدامغة؛ قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال الله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) [سُورَةُ الْأَنْعَامِ : ١٧٥ - ١٧٦] أي: اقصص هذا القصص وبيّنه للناس أن هذا كله يستدعي من الإنسان التفكير والخوف من الله ﷻ والحذر كل الحذر من زيغ القلوب وأسباب ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا

(١) أخرجه البخاري: (٦٦٠) ومسلم: (١٠٣١).

يَتَايَنُنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴿[الأعراف: ١٧٦ - ١٧٧] الآيات، الشَّاهد من هذا أنَّ هذا أمرٌ مهمٌّ أن يتفكَّر الإنسان ويبقى دائم الفكر في ما هو فيه وما يقدم عليه وفي ما يقوله ويفعله ويحذره وفي ما يأتيه ويذرّه كل ذلك.

تفكَّر يا عبد الله! تفكَّر في ما أنت فيه وفي خلق نفسك وفي سائر ما سخَّره الله ﷻ لك ﴿الله الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ ﴿سُورَةُ الْبَنَاتِثَةِ: ١٢﴾ البحر سخَّره الله سبحانه لتجري فيه السفن على مياه وهي نوعٌ من المصنوعات وهذا شيءٌ يستدعي التفكُّر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿سُورَةُ الْبَنَاتِثَةِ: ١٢ - ١٣﴾ كُلُّ ما في السَّمَاوَاتِ وما في الأرض مُسَخَّرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لك أيُّها العبد أيُّها الإنسان أيُّها المُكَلَّفُ اللهُ سَخَّرَ لك هذا الكون كُلَّهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سُورَةُ الْبَنَاتِثَةِ: ١٣﴾ هل أنت تتفكَّر في هذه الأشياء وهذه النعم والمُسَخَّرَاتِ وأنَّ الله ﷻ أكرمك بها أم أنك في غفلةٍ كما يقول الله ﷻ عن الكافرين أنَّهم يَتَمَتَّعون: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ﴿سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ١٢﴾ فلا يتفكَّر في مطعمه ولا مشربه ولا مسكنه ولا منامه ولا ليله ولا نهاره ولا في الكون الذي سخَّره الله ﷻ له، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْ مَّتَجَوِّرَاتٍ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿سُورَةُ الرَّعْدِ: ٣ - ٤﴾ شجرة بجانب شجرة في منبتٍ واحدٍ وهذه ثمرتها مختلفة وتلك مختلفة إذا تأملت هذا علمت أنَّ الله ﷻ غاير بين هذه الأشياء كُلِّها من أجلك ومن أجل إمدادك ولتفكَّر وتذكر نعمة الله ﷻ عليك كما أمرك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَاقُ تُؤَفَّكُونَ﴾ ﴿سُورَةُ قَطْلٍ: ٣﴾ وتأمل ما أمدَّ اللهُ به العبد من المطعومات في طائرٍ من الطيور وهو النَّحل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ أي: ممَّا يبنونه النَّاسُ ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ ﴿أي: الطرق والسُّبُلَ الْمُسِيرَةَ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ﴿هذا كُلُّهُ أَوْحَدَهُ اللَّهُ ﷻ لك!﴾

ينبغي أن تتفكر قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ الْفَخْلَاءِ : ٦٨-٦٩] هل أنت حين أن تذوق ذلك المطعوم اللذيذ تتعجب من هذا المطعوم وتتفكر أن الله سبحانه أكرمك بهذه النعمة وجعل فيها الشفاء لك وجعل فيها أيضاً المطعوم اللذيذ كل ذلك من أجل أن تتفكر وتذكر نعمة الله عليك، أمرٌ عجيب والله ألهم الله هذا الطائر أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما بينه الناس -يعرشه الناس- وتسلك سبل ربها ذللاً وفيها عجائب أنواع عظيمة ألف ابن القيم رحمه الله فيها جزءاً سماه (ملكة النحل) مملكة، نعم ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ وترمي الثمار من كل الثمرات فما من ثمرة من الثمار الطيبة إلا ويرميها النحل وتُمَيِّز بين هذا وهذا عند أن تجعله في شمعته وتجعله في موضعه تُمَيِّز بين هذه الثمرة وبين عسل هذه الثمرة حتى يأتي البصير بذلك فيقص هذا على جانب وهذا على جانب وإذا بهذا فيه شفاء من كذا وذاك فيه شفاء من كذا وكُلُّه شفاء ما من نوع من أنواع العسل إلا وفيه شفاء للناس كما أخبر ربُّ العزة ﷻ، شيءٌ عجيب،

تفكر يا عبد الله في هذه الأمور كُلُّها من خلق السماوات والأرض وحتى في نفسك؛ إذا تأملت في نفسك ونظرت في جوارحك وأعضائك وطعمك ولونك وهكذا في شَمَك هذا كُلُّه من دواعي التفكر وسائر ما أنت فيه من الشئون والله إنه شيءٌ عجيب؛ قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [١٥] أَخَذِينَ مَا أَنْهَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا سَحَارِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿سُورَةُ الذَّارِيَاتِ : ١٥ - ٢١﴾ بعد هذا كُلُّه قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ : ٢١] يعني: ما ترى في نفسك من الآيات؟ وما ترى أيضاً في نفسك من النعم؟ تتقلب فيها ليل نهار، كُلُّ هذا من دواعي التفكر أن تنظر في نفسك وتتفكر أن هذه نعمٌ عليك كُلُّ ذلك أراد الله ﷻ منك أن تعبه فما خلق الله الخلق إلا لعبادته قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [٥٦] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ : ٥٦ - ٥٨]، ممَّا تتفكر فيه في نفسك فقط هو خلقك؛ في نفسك فقط دون غيرها من الموجودات فانظر إلى نفسك وتفكر فيها يزيدك ذلك إيماناً دون غيرها من الموجودات نعم خلقك، فكرة يجعل عندك التفكر والتأمل يزيدك ثقةً بالله ﷻ وأن الذي خلق لحمك ودمك وعظامك وبشرك وشعرك وأوجدك من عدم أنه هو المتصرف فيك هو الخالق لك يحييك ويميتك ويغنيك ويفقرك ويذلُّك ويعزُّك ويفعل ما يشاء ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ : ٢٧]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ

الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعْرِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ [سُورَةُ الْغَاثَةِ : ٢٦]،
تأمل في خلقك قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾
[سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٠] خلقه من أطوار: من تراب أساسه من تراب ثم صار على مراحل كما وصف الله ذلك في
سورة المؤمنين وفي سورة الحج وفي آيات كثيرة -مراحل وأطوار الإنسان-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ : ١٣] إلى آخره، ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴿٥﴾﴾ [سُورَةُ الْحَجَّجِ : ٥] إلى آخر الآيات، هذه مرحلة عظيمة، أيضاً تأمل في ما أراده الله ﷻ من توسع الناس
و كثرة الناس؛ قال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴿٢١﴾﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢١]
[سُورَةُ النَّبَاتِ : ١] خلق منها زوجها ليسكن إليها فهذه من آياته التي تتفكر فيها، خلق الله ﷻ الإنسان وخلق له
زوجة يسكن إليها ولهذا يقول أهل العلم كما ثبت في الحديث: «من تزوج فقد استكمل شطر دينه فليتنق الله في
الشطرين الآخر»^(١) فإنه يسكن ويذهب كثير من تفكيره وربما بعض ما يحصل من الشباب من الطيش يذهب ذلك
ويسكن ويهدأ وينشغل بأمور بيته وأمور أهله: «كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته»^(٢)، نعم، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴿٢١﴾﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢١] هذا من دواعي ذلك، قال في آخر الآية:
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢١]،

تفكر أيضاً ف خلق السماوات والأرض كما قال الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ ﴿٢٢﴾﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٢] تأمل بين اثنين أو أكثر من أبٍ وأمٍ ومن صلبٍ واحدٍ
ورحمٍ واحدٍ لا ترى في أصواتهما اتفاقاً أبداً في الستتهم ﴿وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ﴾ وربما إذا لاحظت
أيضاً بين المتشابهين مع شدة الشبه تجد فروقاً كثيرة بين هذا وذاك ﴿وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ﴾ وبين

^(١) أخرجه الحاكم: (٢٦٨١) والطبراني في (المعجم الأوسط): (٩٧٢) وحسنه الإمام الألباني كما في (السلسلة الصحيحة):

(٦٢٥) و(صحيح الترغيب والترهيب): (١٩١٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

^(٢) أخرجه البخاري: (٨٩٣) ومسلم: (١٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الطَّبَائِعُ فَلَا يَتَّفِقَانِ أَبَدًا فِي الطَّبَائِعِ أَخٌ وَأَخُوهُ مَهْمَا كَانَ وَهَكَذَا أَيْضًا فِي الْخَلْقِ وَهَكَذَا أَيْضًا فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ وَالْأَوْصَافِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٢) تَأَمَّلْ أَيْضًا فِي نَفْسِكَ فِي مَنَامِكَ كَيْفَ يَأْتِي هَذَا النَّوْمُ؟ وَكَيْفَ لَا تَدْرِي إِلَّا وَقَدْ أَغْشَاكَ النَّوْمُ ثُمَّ تَقُومُ مُسْتَرْجِحًا بَعْدَ تَعَبٍ وَإِرْهَاقٍ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٣) هَذِهِ آيَاتٌ سِوَا نَوْمِكَ بِاللَّيْلِ أَوْ نَوْمِكَ بِالنَّهَارِ كُلُّهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ وَابْتِغَاؤُكَ مِنْ فَضْلِهِ تَقُومُ نَشِيطًا وَتَبْتَغِي فَضْلَ اللَّهِ وَيَهْيُوكَ لِذَلِكَ هَذَا تَفَكَّرْ فِيهِ؛ نَعَمْ، تَأَمَّلْ فِي نَزُولِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَجْعَلُ فِيهِ مِنَ النَّبَاتِ وَالْخَيْرِ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٤) تَأَمَّلْ أَيْضًا فِي مَعَادِكَ وَبَعَثِكَ وَرَجُوعِكَ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرٍ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٥) كُلُّ هَذَا الْكَوْنُ بِأَمْرِ اللَّهِ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (سُورَةُ الْيَسِينَ : ٨٢) ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٢٥) دَعْوَةٌ وَاحِدَةٌ، دَعْوَةٌ وَاحِدَةٌ كَمَا يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٥١) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (سُورَةُ الْبُرُوجِ : ٥١) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً ﴿إِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (سُورَةُ الْيَسِينَ : ٥١ - ٥٣) صَيِّحَةٌ وَاحِدَةٌ دَعْوَةٌ وَاحِدَةٌ هَذَا كُلُّهُ مِنْ دَوَاعِي التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ الَّذِي يَزِيدُكَ إِيمَانًا وَالَّذِي يَجْعَلُكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ مَشْغُولًا فِي مَا يَعْنِيكَ وَمُقْبِلًا عَلَى مَا -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- يُرْضِيكَ وَتَنْشَغِلُ عَنْ مَطَامِعِ الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَفَكَّرْ فِيهَا أَيْضًا فَإِنَّهَا مِنْ دَوَاعِي التَّفَكُّرِ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَرَجُهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَآئِمٌ مِّنَ الْعُرُورِ﴾ (سُورَةُ الْحَجَّاتِ : ٢٠) وَهَكَذَا فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ﴾ (سُورَةُ الْيَسِينَ : ٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ (سُورَةُ الْيُونُسِ : ٢٤) -

[٢٦] هذا ما ينبغي للمسلم أن يعتني به في هذه الحياة الدنيا يزداد بذلك ثقتي بإذن الله ﷻ وثقة بالله وإيماناً وتوكلًا وأن مؤجد هذه النفوس هو قابضها وأن مؤجد هذه النفوس هو رازقها وأن مؤجد هذه النفوس هو المتصرف فيها كل ذلك يزداد به إيماناً بالقدر وتوكلًا على الله وثقة به وتوحيداً وإقداماً على طاعة الله ﷻ أكثر.

[الخطبة الثانية:]

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد:

من غفل عن جانب التفكر هلك: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس: ١٠١] :
 [١٠١] فهما بلغت الآيات والنذر ولم يكن متأملًا فيها ولا متدبرًا لها فإن تلك الآيات لا تنفعه وإنما تنفع من تأمل وتفكر فيها كما أخبر الله ﷻ حتى في كتابه -التدبر في كتابه-: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَشِعُرْمُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٣] وحتى أيضاً في ما ذكره الله ﷻ عن الغافلين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩] كل هذا بأنهم ما سخرُوا هذه الجوارح الأفئدة وما مكنهم الله ﷻ في التفكر في طاعته واتباع شرعه؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٦].

نسأل الله السلامة والعافية والتوفيق لما يُحبُّه ويرضاه والحمد لله.